



يختار الغرب والشرق في تفاصيل هذه الحرب على تنظيم الدولة، ويختار أيضاً في المدى الذي ستسفر عنه، ونتائجها على مجل الأوضاع الإقليمية والعربية، وربما الدولية أيضاً.

لأنه يملك إجاباتٍ شافية على هذه الأسئلة، ربما باستثناء قناعة الغالبية بأنَّ الدولة ستُمنى بخسارة في نهاية المعركة.

وقد يكون ذلك صحيحاً، فما من دولة يمكنها إعلان الحرب على العالم أجمع، ثم تنتصر، والقياس على الزمن القديم لا يبدو واقعياً هنا، ليس فقط لأنَّ الأمة ليست مع تلك الدولة وحسب، بل أيضاً لأنَّ العالم يبدو مختلفاً تماماً الاختلاف عن العالم القديم لجهة الحدود والتدخل ووجود المؤسسات الدولية التي لا بدَّ من التعاطي معها لكي تقام مؤسسات يمكن توصيفها بأنها دولة من الناحية العملية.

وإذا كانت دولة بحجم وزن إيران قد تعرضت للإنهاك بسبب الحصار رغم أنَّ جزءاً لا يأس به من العالم كان في صفها، بل يتعاون معها في مواجهة الحصار، فإنَّ دولة تقف قبالة العالم أجمع لن تتمكن من الانتصار، وإنْ تمكنَت من إطالة أمد المعركة وتکبید الأعداء الكثير الكثير من الخسائر.

على أنَّ الوجه المقابل للصورة يتمثل في أنَّ التحالف إياه لا يواجه تنظيماً عادياً ولا دولة ضعيفة في واقع الحال، بل يواجه دولة تحكم بمساحة بحجم بريطانيا، وتملك من الإمكانيات العسكرية والمالية الكثير، في ذات الوقت الذي تملك جيشاً من المقاتلين العقائديين الذين سيخوضون معركتهم حتى الرمق الأخير دون خوفٍ ولا وجع.

ولأنَّ سوريا بتعقيداتها تحضر هنا، فإنَّ المشهد يغدو أكثر تعقيداً، إذ كيف سيواجه الطرف المهاجم موقع الدولة هناك، وهل سيعني ذلك تحالفاً مع بشار، وماذا يبقى من الشعارات الأخلاقية التي يرفعها في هذه الحالة، وهو يتحالف مع نظام لا تقارن دمويته بدموية التنظيم، لاسيما أنه من العبئ المقارنة فقط في أدوات القتل، إذ إنَّ القتل بالبراميل المتفجرة ولعشرات الآلاف من الناس (دمع من الكيماوي) لا يقل بشاعة عن ذبح المئات. وإذا قيل إنهم لن يدعموا بشار بل المعارضة المعتدلة، فما جدوى مساعدتها ضد تنظيم، وتركها وحيدة في مواجهة النظام الأكثر شراسة بكثير؟!

في امتحان سوريا يسقط البعد الأخلاقي للمعركة، بل يسقط سقوطاً مدوياً، إذ يعلم الجميع أنَّ ما منح الدفعة الأكبر لتنظيم

صحيح أنَّ للصراع في العراق دوراً مهماً، لكن الأهم منه بكل المقاييس هو الصراع في سوريا الذي أعاد الاعتبار لبرنامج السلفية الجهادية برمته، والذي ورثه، بل تسييده تنظيم الدولة خلال العامين الأخيرين.

لا يتوقف الأمر عند سوريا، بل يشمل العراق أيضاً، فهنا ثمة دولة لا تبدو خائفة على مؤسساتها من القصف حتى تضعف وتسسلم بسهولة، بل يمكنها مواصلة المعركة ولو جرى تدمير كل شيء، فمقاتلوها لا يعودون إلى بيوتهم مساءً لكي يتناولوا طعام العشاء، وياخذوا قسطاً من الراحة، بل بوسعهم مواصلة القتال، ولو في الجبال والوديان.

وما سيجري عملياً تبعاً لذلك هو معاقبة المدنيين الذين يعيشون في المساحات التي تسيطر عليها الدولة أكثر من معاقبة عناصرها الذين يبدون استعداداً للقتال في كل الحالات، فهل سيتجاهل الغرب ومن سيهاجمون معه حقيقة وجود أولئك المدنيين، ويواصلون القصف بصرف النظر عن عدد الضحايا؟!

مع ذلك لن تنتهي المعركة عند هذا الحد، إذ بوسع التنظيم ولو فقد دولته أن يضرب في أماكن أخرى، فمريدوه لن يتربدوا عند بداية المعركة في توجيه ضربات في أكثر من مكان، بما في ذلك في الغرب والشرق، وسائر المناطق التي يتواجدون فيها، ولن يتركوا مشروعهم (بل حلمهم) ينهار أمام أعينهم وهم يتفرجون.

لذلك كله ستكون المعركة طويلة ومنهكة، لكن النهاية، بل حتى التحريم الحقيقي لن يتم من دون إنهاء الحاضنة الشعبية للتنظيم، وقبل ذلك أسباب نشأته وصعوبته، ولن يحدث ذلك من دون عدالة للعرب السنة في العراق، ومن دون عدالة للغالبية السنّية في سوريا.

لن يكون العالم في خدمة إيران (راعية بشار) الأكثر تضرراً من التنظيم، إذ ثمة حلفاء كثيرون يعتبرون أنهم يلتقون مع التنظيم في حربه عليه (بشار)، وعليها (إيران)، وإن خافوا من أسئلة المستقبل، وما لم تعد إلى رشدتها، فإنَّ خسائرها ونفيتها سيتواصل، بل قد يزداد أكثر فأكثر، لأنَّ التنظيم من دون دولة سيكون أكثر شراسة منه بوجود ما يرى أنه دولة ينبغي الدفاع عن وجودها، فضلاً عن حلم إكمالها بـ«خلافة على منهاج النبوة» كما يردد قادته وأتباعه.